تاريخ ما بين السطور
قصة حب رومانسية

رمضان مصطفى سليمان

الأم و ابنتها

قرية أموي الصينية المواجهة لبحر الصين الرهيب ، قرية جميلة أكثر أهلها يعملون في صيد الاسماك ، و صنع الشباك ، و استضافة القراصنة .

في بيت من بيوت القرية ، كانت الأم الصينية الصارمة تعنف ابنتها الصغيرة بنت الثالثة عشر ، و التي بدأت بوادر الأنوثة تظهر جلية للعيان ، و تدفعها امامها نحو البيت الواقع على ربوة مطلة على الخليج :

أ لم أحذرك من الخروج إلى القرية ؟ إنك لم تعودي صغيرة يا سو .

في مرح تقول سو الصغيرة :

أمي أرجوك ، لا تضربيني ، ثم إنني لا أفهم معنى لخوفك الشديد عليّ ، لماذا أنت وحدك التي تمنع بناتها من الخروج إلى القرية ؟

لماذا أنت لا تعرفين لماذا أيتها الخبيثة ، لأن القراصنة الملاعين ، رغم عدم اعتدائهم على قريتنا ، لن يتورعوا عن خطف ما يريدون من بناتنا ,

لم يحدث أن خطفوا بنتا واحدة أو قتلوا شابا أو رجلا من أموي ، أموي هي المرفأ الذي يجدون فيه كل ترحيب ، يشترون منه الشباك ، و يبيعون للناس ما يحتاجون من سلع .

و أفيون ، هؤلاء القراصنة الملاعين هم الذين نشروا الأفيون في المنطقة كلها ، كانت منطقتنا خالية من هذا الوباء إلى أن عقد معهم العمدة اتفاقا شفهيا بأن تكون أموي مرفأ أمنا يلجؤون إليه شريطة ألا يخطفوا بنتا ، و ينهبوا بيوتنا ، أو يقتلوا أحدا من شباب و رجال القرية ، أو يعتدوا على أي امرأة .

و لم يحدث قط يا أماه كما تعرفين أن خرق القراصنة هذا الاتفاق

في رفق تحنو الأم على ابنتها و تقول ناصحة :

يا بنتي ، أنت جميلة و مليحة ، استدار عودك، وصرت أجمل فتاة في أموي

أماه الشبان الذين تجولوا في أنحاء بلادنا يقولون إنني أجمل فتاة في الصين كلها ، و ليس في أموي فحسب .

لا تستمعي إلى غزل الشبان ، و بعد ذلك تريدين أ لا أمنعك من الخروج من البيت ، و سفينة القراصنة شينح بي ستدخل الميناء اليوم ؟ و يتجول رجالها في أنحاء القرية ليبيعوا بضائعهم المنهوبة من السفن التجارية .

في لهفة تسألها سو ببلاهه :

أماه ، يقولون أنه أن القرصان شاب وسيم رقيق ، أ هو حقا كما يصفونه ؟

في استنكار و غضب شديد ، تقول لها :

رقيق هذا السفاح الذي يملك 500 سفينة عليها 60 ألف قرصان يروع بهم بحار الصين كلها من مكاو حتى مصب نهر سي كيانج ، إنه يمزق ضحاياه إربا ، و يلقي بهم في البحر للأسماك ، و بعد ذلك تقولين أنه رقيق .

تقول سو الصغيرة مرحة :

يقولون إنه شجاع جدا ، خبريني يا أماه ، كيف استطاع شينج بي أن يملك كل هذه السفن ؟ و يسيطر على كل هؤلاء الرجال الأقوياء ؟

و تنهرها الأم في شدة :

سو ،لا تفكري في هذا القرصان اللعين ، ثم إنه ليس شابا كما يقولون عنه ، لقد رايته مرة و هو يتجول في سوق أموي .

في لهفة تسألها سو :

صفيه لي يا أماه ، لابد أنه وسيم كما تقول كل فتيات أموي .

سفاح لعين في الثالثة و الثلاثين ، يداه ملوثتان بدماء ضحاياه ، هي ، ادخلي الدار ، و لا تخرجي منه حتى تغادر سفينة شينج بي الميناء ، هذا إذا جاءت ، ادخلي .

بداية القرصان شينج

و أمر القرصان ابن الثانية و الثلاثين عجيب كله ، لم يكن قرصانا ، و لكنه عشق حياة البحر عمل بحارا على سفينة هولندية ، لكن الربان الهولندي الذي كان بعامل البحارة الصينية ما يعامله السوائم ، صفعة على وجهه ، فكانت عاقبة أمره خسرا ، طعنه شينج بي بالخنجر الماضي فأراده قتيلا .

و ثار البحارة الصينيون و قتلوا بقية الهولنديين ، و نهبوا ما كان في خزانة السفينة من اموال ..

قال لهم شينج :

من هذه اللحظة ستطاردنا السفن الهولندية ، فإذا لجأنا إلى بكين أو غيرها من مدن الصين فيسلمنا الإمبراطور إلى أعداءنا

سألوه :

فماذا نفعل يا شيلج ؟

قال لهم :

لن نقتسم بيننا الأموال التي نهبناها ، بل سنزل بالسفينة حتى ميناء نيجروس في مانيلا ، نشتري بهذه الأموال عددا من السفن الصفيرة ، و نمارس عليها حرفة القرصنة .

و وافقوه جميعا قبل أن يبلغوا ميناء نيجروس اشتروا من القراصنة الذين كالوا يملؤون بحار الصين و يروعون الموانئ و المدن الساحلية ، اشتروا عددا من السفن الصغيرة ، و يسمونها في بحار الصين الجونك

الجونك ؟

الجونك ، هو كل سفن القراصنة و تجار الأفيون في بحار الصين تسمى الجونك ، و هي سفن متوسطة الحجم لا تزيد حمولتها عن مائة أو مائتي طن ، أشرعتها مربعة ، و أخشابها سميكة جدا ، ولا يسهل اقتحامها في معارك بحرية ـ فإذا حاول العدو اقتحامها فوجئ بأنه يتحرك على سطح غير مستو زلق فيسقط فريسة سيوف و خناجر بحارة الجونك ، يمزقون جسده إربا ، ثم يلقون به إلى الأسماك الجائعة .

و لماذا لم تطارده السفن الهولندية للثأر لمصرع الربان الهولندي و سفينته الغارقة ؟

كانت هولندا تخشى الدخول في صراع لا ينتهي مع قراصنة بحر الصين ، فقد كان البحر من شماله إلى جنوبه حتى الملايو يعج بسفن القراصنة الجبارة العتاة الذين لا يرخمون من تطوله أيديهم ، لذلك أثرت هولندا أن تتابع تجارتها مع الصين ، و تنسى ما فعله بها القرصان الجديد .

و هل نجح القرصان الشاب في مهنته الجديدة ؟

أكثر مما توقع له قراصنة الصين ، صار أقواهم جميعا ، أكثرهم جونكات ، صار يملك ستمائة جونك ، و يعمل في خدمته على هذه السفن الكثيرة ستين الأف قرصان من أشرس رجال البحر ، كلمته نافذة من يعصيها فليس له إلا الموت الحتمي .

فكيف لم تطارده سفن الحرب الإمبراطورية

يزعم عتاة الاستعمار البريطانيين و الهولنديين أن الإمبراطور الصيني " شيبا شينج " الذي ضاق ذرعا بعربدة سفن الأفيون البريطانية و الهولندية كان يشجعه في السر ، و يتغاضى عن التجاء بعض جونكاته إلى موانئ الصين في الأوقات التي تسوء فبها الأحوال الجوية ، و تهب ريح " التيفون " الرهيبة لتغرق السفن التي تسارع بالالتجاء إلى الموانئ الآمنة ، بل زعم ممثل الاستعمار البريطاني في الملايو الجنرال تايير في مذكرة سرية قدمها لوزارة الخارجية :

على حكومتنا أن تتدخل بسرعة لإقناع الإمبراطور الصيني شيبا شينج بأن من مصلحة الصين عدم تشجيع القراصنة على مهاجمة السفن الأجنبية ، و من المفضل أن تشفع حكومتنا هذا بدفع معونة مالية تساوي ما يحصل عليه من القراصنة الصينيين من معونات .

و الادعاء كاذب ، كما تعود المستعمرون إلى تلفيق التهم ، التي تحافظ على هيبتهم ، لم يكن الإمبراطور الصيني في حاجة إلى معونة من أحد لا من المستعمر الانجليز أو الهولندي أو حتى القراصنة ، فخزينته مملوءة بالذهب و الأموال ، كانت دولته بالغة الثراء ، و يعيش أهلها في رفاهية ، ولكنه لدواعي الوطنية كان

يغض الطرف عن عبث القراصنة الصينيين و نشاطهم في نهب و اغراق السفن التجارية الأجنبية التي كانت بضاعتها لا تخرج عن سلعتين ، الرقيق الأبيض أو عن شأت الأصفر من الشباب و الشبات و الأفيون .

اختفاء سو

و لنعد إلى الفتاة الصينية سو و أمها التي تمنعها من الخروج من الدار تزور سفن القرصان شينج بي قريتها اموي .

انصاعت الفتاة لنصيحة أمها ، و حين غادرت سفن شيتج بي القرية فوجئت الأم باختفاء ابنتها .

و أين اختفت ؟

تسللت في غفلة من بحارة سفينة القيادة ، و اختبأت تحت فراش القرصان ، ظلت في مخبئها إلى أن ابتعدت سفن الأسطول عن القرية ، و أوغلت في بحر الصين الجنوبي لم يكتشف شينج بي وجودها إلا بعد أن عضها الجوع ، حرجت من مكمنها بحثا عما تسد به الرمق ، وراءها شينج تتسلل إلى ما تبقى من طعامه قرب الفجر ، قال ضاحكا :

من أين جاء هذا الفأر الصغير ؟ لنفكر في أسرع وسيلة لقتله ؟ هل نلقي به في البحر ؟ أو نمزقه أربا ؟

لم تفزع الصغيرة ، و لكنها قالت في ضعف شديد :

افعل ما تشاء ، و لكن بحق بوذا الآلهة العظيم عليّ أن أتناول شيئا من هذا الطعام ؟

قال شينج :

حسنا سنطلب لك إفطارا شهيا ، و بعدها سننظر في أفضل الوسائل للخلاص منك .

و أكلت سو في شراهة و كان القرصان ينظر غليها متأملا ، ثم عبت ما شاءت من النبيذ الذي خلطه بالماء ، و قدمه لها القرصان جون مراعاة لصغر سنها ، قالت له ضاحكة :

إذا كنت تريد أن اسكر فلا تأمل في ذلك ، و الآن أفعل بي ما تشاء ، و لكن لا تمزقني إربا ، ادفع خنجرك في قلبي دفعة واحدة و ينتهي الأمر ، المهم ألا أتعذب .

في حدة و غضب قال شينج :

يا فتاة ، أنت دون شك من بنات قرية أموي ، أ تعرفين أنك بفعلتك هذه ستجلبين علي و على بحارتي الشر كل الشر ؟ إن بيني

و بين عمدة أموي عهدا ألا أخطف أحدا من بنات قريته ، أو أقتل أحد من رجالها ، هل خطفك أحد من رجال السفينة ؟

كلا ، أنا التي تسللت إليها في غفلة من الجميع .

و أطلق شينج أعذب ضحكاته ، و قال :

و لم تجدي غير غرفتي تختبئين تحت فراشها ؟ لماذا فعلنت ذلك أينها الصغيرة الحمقاء ؟

إنني لسن صغيرة و لا حمقاء ، إنني الآن في السادسة عشر من عمري ، شابة كما ترى .

لا أحسبك تزيدين عن الثالثة عشر يوما واحدا ، صحيح إنك جميلة ورشيقة ، و لكن ..

قاطعته سو في كبرياء و آنفة :

أنا أجمل فتاة في الصين كلها ،

لا ينكر هذا إلا أعمى

و لست حمقاء أيضا

لابد أن لك هدفا وراء الفرار من قريتك ؟ لماذا قررت من أهلك ؟

لن تصدق يا شينج بي .

ضحك شينج و قال :

اخبريني إذا

هل تصدق مثلا إنني أحبك ؟ لقد فررت لأكون معك .

و هنا ضحك شينج عاليا ، و قال ساخرا بالصغيرة :

إنك لست حمقاء فحسب ، بل مجنونة أيضا ، و لكني يا فتاة لا أحب الصغيرات الهاربات من أهلهن , إني أحب النسوة الناضجات .

قالت و كأنها لم تسمع قوله :

ستحبني إذا أبقيتني معك ، و ستتزوجني أيضا , على سمة بوذا العظيم .

لا وقت للقرصان ليرعى زوجة و أولادا ، القرصان قد يلقى مصرعه في أي وقت .

إنك قرصان منذ كنت في العشرين ، اثنا عشر عاما ، و أنت في هذه المهنة ، تزداد قوة و ثراء و بهاء ، مثلك لا يلقي مصرعه بسهولة ، تزوجني يا شينج بي ، لن تندم على ذلك أبدا .

قال شينج بي :

إنك يا صغيرة لا تعرفين معنى حياة القرصان ، إنني أعيش على هذه السفينة أكثر شهور العام ، بين رجالي الذين لا تعرف الرحمة غلى قلوبهم سبيلا ، هل رأيت ماذا يفعل القراصنة بالسفن التي يلقيها سوء حظها في طريق سفني ؟ نبيع النساء في أسواق النخاسة ، نقتل الرجال و نمزقهم إربا ، و نلقي بهم إلى الأسماك ، يأتي علينا وقت لا نستطيع فيه الحصول على الطعام المناسب ، عندها لا يحد رجالي غير الجرذان وهوام السفينة ، إنهم يعيشون مكدسين في كل شبر من الجونك ، و هكذا الحال على كل السفن ، روائحهم كريهة و أنفاسهم عفنة بريح الأفيون ، و أيديهم مخضبة بدماء ضحاياهم ، و لا تراجع و لا ندم أيضا ، هذه الحياة لا تناسب أي فتاة ، فما بالك بفتاة مرفهة رقيقة مثلك ؟

أدهشته سو بأن قالت :

أخبرني يا شينج بي ، لقد رأيت مع بحارتك نساء كثيرات جميلات ، أ هن صديقات البحارة ؟

بل زوجاتهم ، من يختار أية سبية لا أحرمه منها ، بعضهم له ثلاث زوجات ، و لكنهن يحيين حياة مروعة ، لا يجدن مكانا يرقدن فيه ، يا صغيرتي الحياة على الحونكات لا يرضى عنها بوذا ، و إني أجل عينيك الجميلتين عن أن تشهدا ما يحدث في كل شبر من الجونك ، إذا جاء الليل سأعيدك إلى قريتك

قالت على الفور :

سأفتل نفسي إذا فعلت بي ذلك ، ألا تدرك إني أحبك ، و إني على استعداد لتحمل ما تتحمله نساء بارتك إذا تزوجتني .

ضحك شينج و قال :

ليس في استطاعتي الآن ، على أي حال ، أن أعيدك إلى قريتك و نحن في رحلة إلى ماكاو ، و لكني سأعيدك إليها دون شك في الشهر القادم ، و لا تداعبي الأمل في أن أتزوجك يا إلهي ، أتزوج طفلة .

و ضحكت و قالت :
سنرى .. سوف تتزوجني ، و عن حب .

غرام شينج بسو

و لكن شينج بي لم يلبث أن وقع في غرام الصبية الصغيرة الجميلة ، تزوجها في حقل صغير وسط البحارة و خليلاتهم على سطح الجونك بمباركة بحار كان قبل ذلك كاهنا في معبد بوذا في قرية دافوا .

و أمها ؟ و أخواتها ؟ أ لم يعلموا بهذا الزواج ؟

أرسل شينج بي بالخبر إلى أمها مع أحد رجاله فاستدعاه العمدة إلى مقره ،

فقال الرجل :

أقسم لك ببوذا العظيم يا سيدي العمدة أن سيدنا شينج بي لم يخطف الفتاة سو ، هي التي جاءته بمحض إرادتها ، و لقد تزوجها زواجا شرعيا على عقيدة بوذا ,

صار غرام القرصان بزوجته الصغيرة حديث بحار الصين كلها ، و كانت سو ى تلالا الدنيا إلا في عيني زوجها الحبيب ، و لا تشعر بأية سعادة إلا على نور ابتسامته الرضية الحلوة .

و لكنه كان سفاحا ، قرصانا يسفك الدماء في كل معركة ، كيف تحب رجلا كهذا ؟

الأعجب يا زميلتي أنها لم تكن تتدخل قط في عمله ، كانت إذا دخلت سفنه الكثيرة في معارك بحرية مع السفن المعادية دخلت مخدعها و لم تخرج منه إلا بعد أن ينهي كل شيء .

كل شيء يعني الجثث الممزقة الملقاة في الماء تتناوشها الأسماك و القروش ، تعني الدماء الغزيرة على سطح الحونكات ، تعني غرق جونكات الأعداء .

و تعني السبيات الأسيرات تعلقن من شعرهن على صواري الجونكات إلى أن يتم فداؤهن بما يرضي القرصان الرهيب من مال أو بضاعة ، و كانت مراسيم الزواج تتم على سطح الحونكات على شريعة بوذا .

و أي امرأة تلك التي تقبل الزواج من سفاح لا توال يديه مخضبة بدماء أهلها ، و ربما دماء زوجها أيضا ؟

كثيرات منهن كن يلقين بأنفسهن في البحر يفضلن الموت غرقا و بين أنياب القروش على العيش في أحضان قرصان سفاح

و كانت سو الرقيقة ترى هذا ؟ و كيف رضيت بحياة رهيبة كهذه ؟

الحب يفعل الأعاجيب كانت تحب شينج بي ، و كان هو بدوره يحبها حبا جنونيا ، و يعتبرها هدية بوذا إليه ، و مع هذا فقد كان يمنعها من مغادر المخدع إلى أن تنتهي المآسي على سطح سفينة القيادة ، و على أسطح بقية سفن أسطوله البالغ 600 جونك ، يعمل عليها 60 ألف قرصانا ، لم يكن يفسد عليه سعادتها إلا عجم قدرتها على أن تعطي زوجها الحبيب طفلا يسعد به .

لعله لم يكن يريد طفلا يعجز عن تنشئته نشأة صالحة في هذه الظروف الدموية .

بل كن يتوق إلى هذا ، أربع سنوات تمر على زواجه بسو ، و ليس له من أمنية إلا أن تهبه الطفل الموعود ، و فجأة يقع ما لم يكن في الحسبان .

و ما ذلك

و مازلنا في بحر الصين في صيف 1800 ، و رغم أن رحلتنا هذه عبر الزمان و المسافة ، و في أغوار قرنين من الزمن الماضي إلا إنني أشعر برعب و أنا على الجونك ، أعني غلى سفينة القرصان .

فأقول ضاحكا مطمئنا :

مع أن الجنس اللطيف عادة أقوى جنانا منا نحن الذين يسموننا بالجنس الخشن ، و اصدقك القول إنني أنا الآخر ارتعد خوفا و أنا أرى بحارة الحونكات الصينيين يفتكون أبشع فتكة بفرائسهم ، يقتلون الرجال و الصبية ، و يعلقون النساء من شعرهن على صواري الأشرعة حتى يهرع أهلهن إلى دفع الفدية التي يحددها القرصان الأكبر الشاب شينج بي .

الذي يثير العجب حقا هو كيف تهرب الشابة الصغيرة سو من قريتها الامنة أموي لتنضم إلى هؤلاء الوحوش الآدمية

الحب ، أحبت شينج بي و تزوجته ، و ها هما يعيشان قصة حب رومانسية يتناقل أخبارها كل من في بحار الصين من قراصنة ، و خاصة قراصنة شينج بي الستون ألفا .

في مهب العاصفة

و تهب رياح شديدة عاصفة يزلزل الخوف قلوب الجميع : ماذا إذا سوف يحدث إذا عبثت الريح بالجونك ؟ .

أدعو الله ألا تكون هذه بداية ريح التيفون الخطيرة ، أقوى اعصار يهب مخربا محطما في هذه البحار ، ألا هذا الاعصار لم يستكمل كل قوته بعد ، يهب هبا مروعا بجوانكات القراصنة الخفيفة ، في صيف عام 1800 اجتاح اعصار التيفون بحر الصين و شواطئ البلاد الواقعة على البحر بقسميه الشمالي و الجنوبي ، و بلغ من فداحة التدمير الذي أحدثه ذلك الاعصار أن دخل تاريخ العواصف و الأعاصير تحت اسم جنكيز خان ،

ذلك لأنه أهلك ربع سكان المدن الواقعة في شرق الصين خاصة المدن و القرى الساحلية كما هدم تسعين في المائة من بيوتها القديمة الخربة و معابدها الأثرية الجميلة ، فهو بهذا أشبه بالمغولي جنكيز خان الذي غزا الصين من ناحية حدودها الغربية ، و هدم جزءا كبيرا من سور الصين العظيم ، وانحط بجحافله من هضبة المغول ، أمر جنكيز خان في أوائل ربيع عام 1227 قسماً صغيراً من جيشه بالتقدم باتجاه أراضي سونغ تحت ذريعة مهاجمة أراضي جين، دمر المغول المقاطعات الخمس الرئيسية في جين وهي :**جي، فنغ، تشنغ، هي، وتيانشوي**، ثم تحرك المغول جنوباً واستولوا على ونتشو، وعادوا في يوليو إلى الشمال.:

لم يضرب الاعصار المنطقة منذ أكثر من أربعة قرون تقريبا ، اعصار في قوة اعصار عام 1800 ، و قد بلغ من عنف تدميره قبل أن يقتحم المحيط الهادئ أن أغرق أكثر من أربعين جزيرة صغيرة ، بعض هذه الجزر لم يجدوا عليها إنسانا أو حيوانا أو طائرا بعد مرور أربعة أعوام على تبدد الاعصار في متاهات المحيط الهادئ .

ترى ماذا فعل الاعصار المروع بسفن القراصنة ؟

أغرق أكثر الجونكات بمن عليها ، و مع هذا فإن أكثر سفن القرصان شينج بي وزوجته الجميلة سو كانت في تلك الفترة

الخطيرة في موانئ آمنة ، في خلجان الملايو ، أما سفينة القيادة التي كان شينج بي قد أطلق عليها اسما رومانسيا " الجميلة الغندورة " (阿尔及利亚) فقد فاجأها الاعصار قبل أن تدخل مرفأ بانكوك ، كان شينج قد استطاع أن يقود كل جونكاته إلى ذلك المرفأ الأمن من عبث التيفون ، رغبة في الاطمئنان على كل سفنه في دخول الخليج ، فلطم الاعصار سفينته لطمة عنيفة ، و رفعها كما يرفع الجني الغضوب إحدى فرائسه ، ثم ألقى بها على صخور إحدى جزر الفلبين ، و تدعي جزيرة بالاواد ، و صاح شينج بي وهو يصارع الموج الثائر :

سو ، سو أين أنت ؟

فتصيح مثله :

قربك يا شينج ، و لكن الماء يكاد يغرقني .

سأحاول الاقتراب منك ، أ ليس قربك أحد من رجالنا ؟

كلا ، أحسب أنهم غرقوا جميعا بعد أن تحطمت السفينة .

تماسكي يا سو ، إني أراك رغم الماء الذي يغطي كل شيء تماسكي

كان شينج قد تمسك بلوح من أخشاب الحونك الغارق ، بطل يحاول الاقتراب من زوجته التي تمكنت من التمسك باللوح على أن اصطدم بصخور شاطئ جزيرة بالاوار ، راقدا على الشاطئ , قد استبد بهما التعب و الارهاق و ظنا ان الموت سيرفقهما في أي لحظة يتجه إليهما لسان من ألسنة الاعصار الرهيب ، و لكن الحظ حالفهما ، و مرا ثلاث ساعات وهما في رقدتهما على الشاطئ ، و لم يلبثا أن رأيا أحد رجال الجونك المحطم تدفعه الأمواج إلى الشاطئ قربهما .

قالت سو :

إنه ينج وا يا شينج ، مساعدك الأول ، نجا مثلنا بأعجوبة

و لكن شينج لم يرد على زوجته ، كان قد ذهب في إغماءة طويلة ، و رأت سو خيطا من الدماء يسيل من ركن فمه، و رأى بنج ما رأت سو فقال لها :

و لاشك أنه أصيب في جسده أثناء كفاحه في الماء ، أو ساعة تحطمت الجونك

قي خوف سألته سو :
ما معنى هذا الدم يا بنج ؟ إني خائفة .؟
معناه أن الريس ينزف من الداخل
ووضعت يدها على جبهته ، ثم صاحت مذعورة :
يا لبوذة ، إن حرارته مرتفعة جدا .
قال بنج :
لو استطعنا ايقاف النزيف لأنقذه ذلك من الموت .
في رعب صاحت سو : يموت ؟ زوجي يموت ؟ شينج بي يموت ؟ مستحيل ، شينج ، شينج أيها الحبيب أتوسل إليك ، لا تمت ، لا تمت ، يجب ايقاف النزيف يا بنج .
قال بنج :
كنا على الجونك نعالج مثل هذه الاصابات بأعشاب معينة ، و لكن ، لكن أين لنا بهذه الأعشاب هنا ؟
وولولت سو :
أبعد أن نجونا من التيفون ؟ أفقد زوجي و حبيبي ؟ مستحيل ، بوذا العظيم أتوسل إليك ، أنقذه يا بوذا .
قال بنج : لو توقف النزيف فلن يمت
و الحرارة عالية
ستنخفض إذا توقف النزيف ، آه ها هو يفتح غينيه
كالمخلولة نادته سو :
شينج ، شينج
في صوت ضعيف متهافت قال شينج :
سو العزيزة ، ماذا جرى لي ؟ كأني كنت أحلم ، أشعر في بطني بنار حامية .
قال ينج :
يبدو يا ريس أنك أصبت بشظية في بطنك ، إنك الآن بخير
قال شينج :
لا لست بخير يا بنج ، سو العزيزة ، أحسب إنني لن أعيش طويلا
صاحت سو باكية نادبة :
بحق بوذا لا تقل ذلك أنت بخير ، لقد نجوت ..

لست بخير يا سو ، أرجوك أن تستمعي الي ، بنج
أجل يا ريس
لتكن شاهدا على ما أقول ، إن كل سفني التي لجأت إلى الموانئ الآمنة ، و كل ثروتي في مصارف الصين ، وفي وكالات التجارة بالهند ، كلها تؤول إلى زوجتي الحبيبة سو كن شاهدا على ما أقول .
قال ينج :
أجل ، أجل يا ريس ، و لكنك بخير و ستعود إلى سفنك و تقودنا من جديد بحكمتك و برك
قاطعه شينج في ضعف :
أرجوك يا ينج ، استمع إلى ما أقول لسو ، فستكون شاهدي الوحيد على ذلك ، سو يا حبيبة القلب ، لقد كنت منذ عرفتك مصدر كل سعادة و سرور لقلبي ، و قد أملت أن يكون لي منك الولد الذي يرث ثروتي و سفني ، و لكن الأماني كلها لا تتحقق يا حبيبتي ، إني أترك لك كل ثروتي ، فليس لي في الدنيا من وارث سواك ، تصرفي في الثروة كم تحبين ، أما أن تتابعي عملي بمساعدة ربابنة الجونكات ، و إما أن تبيعي كل هذا و تعودي إلى قريتك أموي ,
و يلح عليه النزيف الداخلي ، يسكت لحظة ، ثم يتمالك نفسه و يعود يحدث زوجته :
سو ، أذكري أن لا أحد أحبك كما أحببتك ، ينج ، أنت شاهدي عل ما أقل ، اذكر هذا لكل بحارة سفني ، قل لهم أن الرئيسة الآن هي زوجتي ، و إن عليهم أن يطيعوها كما كانوا يطيعونني ، أقسم لي على ذلك يا ينج ، أقسم ببوذا .
و مات شينج بي ، أجل لفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعي زوجته الولهة الحزينة سو ، دفناه حيث مات ، و ظلت الأرملة الصغيرة لا تأكل و لا تتكلم أياما ، كان ينج يصطاد لها بعض الأسماك ، و يشويها على النار فلا تأكل إلا ما يقيم أودها ، و مر شهر ، و عادت سفن القراصنة التي يملكها الراحل شينج بي تجوب بحار الصين وجزره على أمل العثور على الزعيم المفقود وزوجته ، و أخيرا عثر عليهما بحارة إحدى الجونكات ، نقلوها و مساعد زوجها بنج إلى مرفأ قرية أموي .

بعد العودة حوار الأم و الابنة

لعلها بعد أن عات إلى قريتها قررت أن تبقى بها ؟

هذا ما فقالته لها أمها ، قالت لها :

سو يا حبيبتي ، أنت الآن اثرى نساء الصين ، ابقي هنا ، في استطاعتك أن تقدمي الخير الكثير لأهالي قريتك .

في صوت واجم قالت سو :

أماه لقد خيرني شينج ساعة موته بين ان أفعل ما تقولين ، و بين أن أتابع عمله ، لقد قررت أن أتابع العمل على السفن .

مروعة قالت الأم :

ماذا ؟ تتابعين عمله ؟ تتزعمين قراصنة يا ابنتي ؟ لإنك في السابعة عشر ، لن يطيعك هؤلاء البحارة القساة الغلاظ السفاحون ، سيطمعون في جمالك و شبابك ربابنة الجونكات ، و قد لا يقرون وصية زوجك .

أماه لقد أقسمت بيني و بين نفسي بعد أن مات شينج أن أحقق ما كان يرجوه لولده الذي لم استطع أن أهبه له ، سأكون أنا ولده وبنته و أرملته ، و سيراني من وراء الغيب أقف على سفينة القيادة أقود الجونكات ، أخضع كل من يتمرد على سلطاني بنفس أسلوبه ، القتل .

سو ، لقد جننت دون ريب ، أنت قرصانة ؟

أ لم أكن زوجة قرصان ؟

يا بنتي ، أي فرق

أماه إنني أحبك و احترمك ، ولكني كنت أحب شينج بي حبا يكفي كل الناس ، لك و لأخوتي ، و سأظل على أن أموت وفية لزوجي ، و لن أتزوج إلى أن ألحق به ، تحت الأرض في الترب ، أو في السماء .

يا بنتي أنت في السبعة عشر ، و الحياة أمامك طويلة ، و ستقدم لك بعد أن صرت بالغة الثراء فوق جمالك البارع كثير من ماندرانات الصين الشبان ، لا تهدي أجمل سنوات عمرك في الحداد .

أماه لن أتزوج إلى أن ألحق بزوجي الحبيب الراحل شينج بي ، فلا تحدثيني في هذا الأمر بعد الآن .

و عادت إلى سفن القراصنة من جديد ، أجل ، ذات يوم غادرت البيت غلى معبد الإله بوذا ، قدمت القرابين ، و أغدقت المكافآت على الكهان ليقيموا أطول صلوات لروح زوجها الحبيب ، ثم ذهبت إلى الميناء ، صعدت إلى سطح واحدة من جونكات زوجها الراحل ، استقبلها البحارة في وجوم ، ووجوه مكفهرة ، و لكن في احترام .

نادت مساعد زوجها الراحل :

بنج وا ..

أجل يا سيدتي ..

اذكر للرجال ما قال زوجي الحبيب قبل موته في جزيرة بالاوار

تقم نحوها أحد البحارة ، انحنى في احترام ثم قال :

سيدتي لقد أخبرنا بنج بكل ما قال الريس العظيم قبل أن يموت في تلك الجزيرة النائية ، و قد تدبرنا أمرنا ، و عقدنا عند رسو الحونكات أكثر من جلسة ، و خرجوا في النهاية بقرار واحد ، و قرروا ألا يقبلوا لهم رئيسا سواك إذا قررت الابقاء على الجونكات ، أما إذا قررت بيعها فقد استقر عزم الجميع على اعتزال القرصنة و الاستسلام للقوات البحرية للإمبراطور الصيني .

قالت سو :

أيها الأصدقاء الأبطال لن لأبيع سفن زوجي الراحل ، و سأقودكم كما كان يقودك بطلكم العظيم .

و هتفوا بها جميعا بأعلى الأصوات ، وخرجت سفينة القيادة من مرفأ قرية أموي و في مقدمتها القرصنة الشابة الصغيرة سو ، ما إن صارت في عرض بحر الصين الشمالي حتى تجمع حول سفينتها في طائرة كبيرة أكثر من ستمائة حونك عليها أكثر من ستين الأف فرصان ، بصوت دوى كالرعد في تلك البحار الساحرة المسحورة الحافلة بكل غامض و غريب و مثير هتفوا جميها باسم زعيمتهم الجديدة تحيا مدام شينج .

قالت زميلتنا في دهشة :

مدام شينج ؟ هذا لقب جديد .

على الصينيين يا وكيلي

أجل هنف به أحد قادة الجونكات ، كان يعمل من قبل على سفينة قراصنة فرنسيين فتبعه الجميع ، و دخل الاسم تاريخ بحار الصين ، صار اسم مدام شينج رمزا على براعة القيادة و حسن الادراك و الشجاعة المعجبة في القتال .

في القتال ، تعني يا زميلي أنها تابعت أعمال القرصنة .

بنفس تقاليد القراصنة كانت تشترك في القتال المتلاحم ، و تأمر بتعليق السبايا من شعورهن في صواري الجونكات ، حتى يتم افتداؤهن ، تشهد إلقاء الرجال القتلى من الأعداء إلى القروش النهمة التي تحوم حول موائد الطعام الشهية ، كانت قد عزمت على أن تكون هي شينج بي نفسه ، و كانت تقول لربابنة الجونكات إذا اجتمعت بهم على سفينة القيادة :

مدام شينج بي ، لقد تجسدت روح زوجي الحبيب في كياني ، إذا رأيتموني فعلت ما لم يفعله شينج بي فلا تبقوا علي حية لحظة واحدة ؟

و هتفوا لها ، كانوا جميها يطيعونها طاعة عمياء .

و كان ثلاثة من كبار ربابنة سفنها قد وقعوا في غرامها ، و كانت سو ترى هذا في عيونهم إذا جمعتهم جلسة عمل على سفينتها ، لكنها كانت تقابل كل هذا بوجوم و صرامة تدخل اليأس منها إلى قلوب الجميع .

هذا غير طبيعي ، إنها في السابعة عشر من عمرها ، عمر الورود المتفتحة ، جميلة رائعة الجمال ، ثرية أ لم يتحرك قلبها للحب ؟

حب جديد

كان حبها كله لذكرى زوجها الحبيب ، يئس منها كل من تعلق قلبه بها ، و لكن قلبا ثانيا بعيدا لم ييأس أبدا .

قلب من هذا ؟ قلب قرصان مثلها ؟

بل قلب الرجل الذي آل على نفسه القضاء على القرصنة في بحار الصين ، قلب الأمير أو بو تيا حاكم كانتون .

هل راها من قبل ؟

كلا ، أحبها على السماع ، و بلغ من حبه هذا العجيب أن أقام لها في قصره في كانون معبدا يفد لها في كل صباح صلوات خاصة ، و يحرق البخور في مباخر من ذهب في معبد غرامه ، و كأنها شقيقة بوذا . .

و هي ، أكانت تدري بهذا الحب النادر ؟ هل كانت غافلة عنه ؟

قلت :

كانت غافلة عنه تماما ، إلى أن جاء يوم

كان ذلك الحاكم الصيني الرومانسي من أُغرب الإمبراطور شيبا شينج من أثريا الصين و أشدهم مرسا في مكافحة القراصنة في بحار الصين ، رغم أنه لم يتعدى الثلاثين من عمره .

ذكرت ، أن مدام شينج لم تكن تدري بما يكنه لها هذا ألأمير العاشق من وله و اعجاب ، يفوق كل اعجاب في قصص الحب الرومانسي في العالم .

لم تدر إلا يوم زارت بأسطولها قريتها القديمة أموي و ..

هنا نقطة أحب أن أجلو غموضها ، كيف كانت تستطيع أن تدخل بأسطولها الكبير موانئ الصين ، تزور قريتها أموي ، و هي آمنة من مطاردة الأسطول الإمبراطوري ؟ و خاصة أن سقن مقاومة القراصنة التي يقودها عشيقها الغامض حاكم كانتون الأمير أو بو تيا .

قصة القرصنة في بحار الصين في تلك الفترة من بدايات القرن التاسع عشر ذات أبعاد عجيبة ، فهذ1ه هي الفتة التي تنبهت

فيها أوربا إلى اسواق الصين ، و تلمظت إنجلترا و فرنسا و هولندا و البرتغال غلى المكاسب الدسمة التي يمكن ان تحققها من اغراق هذه الأسواق بكل أنواع البضائع ، في تلك الفترة كان الميزان التجاري في صالح الصين ، فهي لا تستورد إلا القليل ، في الوقت الذي تصدر فيه آلاف السلع التي يشتهيها الأوربيون المنسوجات الحريرية المطرزة بخيوط الذهب ، الآنية الفاخرة من أحود أنواع الفخار الصيني ، و المشغولات النحاسية الفنية اليدوية النادرة ، و لم تكن تستورد من الدول الأوربية إلا الملح و السكر ، و حين أرسلت بريطانيا إلى الإمبراطور الصيني بعثة تجارية تحمل قوائم السلع التي تود تصديرها إلى الصين ، قال الإمبراطور وهو يبتسم ابتسامة صفراء لهذه البعثة :

إننا نملك كل شيء حتى الملح و السكر نتجه الان في بلانا ، و لا نقيم وزنا للأشياء الغريبة التي تعرضونها علينا ، و لسنا في حاجة إلى مصنوعات بلادكم الخالية من الذوق و الفن و الجمال ؟

عندها تفتقت ذهن أبالسة الاستعمار الأوربي عن أخبث حيلة كي يغدو الميزان التجاري في صالح الدول الأوربية ، و ليس في صالح الصين ، تفتق ذهنهم عن الأفيون ، قررت حكومة بريطانيا بالاتفاق السري مع هولندا :

يجب أن نغرق أسواق الصين بالأفيون ، إذا أدم الصينيون الأفيون فسيغدو السلعة الأولى التي يطلبونها ، سلعة تحسن مزاجهم ، و تذهب بعقولهم في الخيال .

ماذا لو رفض الإمبراطور شراء الأفيون ؟

سيرفض بالطبع ، ولن نعرض عليه ، بل سنهربه إلى أسواق الصين ، و لم تحملنا في سبيل ذلك في الأمر خسائر مادية كبيرة و بشرية ، يتعرض رجالنا الذين سيقومون بالتهريب إل مصادمات دموية ، و قد يفتك بهم كهنة المعابد في الأماكن النائية ، و لكننا سنباشر مهمتنا ، فإذا صار الأفيون بالنسبة لأهل الصين كالشاي بالنسبة للإنجليز سعوا هم إلينا ، فنبيع لهم الأفيون بوزنه ذهبا .

حتى هذه اللحظة كنت أظن أن الصين هي المصدر الأول للأفيون ، و أنها تزرعه في ارضها .؟

كلا ، لم يعرف أهل الصين الأفيون إلا في عام 1781 حين أرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية و مقرها بومباي أول شحنة كبيرة من الأفيون المزروع في الهند ، ذلك الأفيون الذي سيدمن عليه أهل الصين ، كما أدمن عليه أهل الهند . .

و قبلها الإمبراطور

بل رفضها ، و هدد بإغراق السفن البريطانية إذا لم تعادر الميناء ، عندها صار التهريب هو صاحب الكلمة الأولى في قاموس هذه التجارة الآثمة ، تحولت تجارة الأفيون إلى جزيرة صغيرة عن مصب نهر كانتون اسمة جزيرة لنتن .

نجاحا لم يتوقعه أحد ، صارت مئات الألوف من الأهالي من مدمني الأفيون ، و رغم أن الإمبراطور شيبا شينج أصدر مرسوما بتحريم الأفيون و تعاطيه ، إلا أن تجار الصين انفسهم و قراصنة بحار الصين من أوربيين و صينيين تحايلوا على القانون ، و أصبحوا هم العملاء الكبار لكبار تجار الأفيون الأوربيين .

أ كانت سفن مدام شينج تتاجر في الأفيون ؟

ككل قراصنة بحار الصين ، استطاعت أن تضاعف ثروة زوجها ، كما ارتفع عدد مدمني الأفيون في الصين إلى نسبة مخيفة 27 % من أفراد الشعب الصيني ، الباغية كانوا يتعاطون الأفيون ، ، لهذا عين الإمبراطور الأمير أو بو تيا حاكما لكانتون المهمة محددة قال لي سيده :

أمير أو بو تيا مهمتك القضاء على تهريب الأفيون إلى بلادنا ، تستطيع دون إذن مسبق منا الاستعانة بسفن الأسطول الإمبراطوري في مطاردة سفن التهريب الأوربية ، لا نريد حربا مع أوربا ، و لكننا سندخل الحرب إذا لم يكن منها بدا لإنقاذ شعبنا من وباء الأفيون .

كأنك تمهد لصراع بين الحبيبين ، الأمير أو يو تيا العاشق ، و بين الأرملة الصغيرة القرصانة الجميلة الشابة مدم شينج (سو) التي لا تدري بما يكنه لها ألأمير من عاطفة حب رومانسي كبير .

أراد الإمبراطور أو يو ي\تيا أن يتحاشى مثل هذا الصراع ، بل طمع في أن يستعين بسفن الحبيبة القرصانة في مطاردة سفن التهريب الأوربية ،

و كما قلت حدث أن زارت مدام شينج بأسطولها قريتها الصغيرة أموي و كانت القرصانة الجميلة الشابة بارة بأمها و بأخواتها ، تحمل إليهم في كل زيارة الهدايا الثمينة و الهبات المالية الكبيرة ، كانت أمها تقابلها عادة في جفاء ، بل و كانت ترفض مصافحتها و تقول غاضبة :

لن أصافح يدا ملوثة بدماء الأبرياء

هذه المرة استقبلت الأم ابنتها في سرور و سهلت ، في مرح سألتها مدام شينج :

أماه ما وراء هذا الترحيب يا ترى ؟ لا تقولي أن أخوتي يريدون الارتقاء بسفني .

قالت الأم :

أعوذ بالله يحترفون القرصنة ؟ و يقتلون الأبرياء - و يتاجرون في الأفيون ، و يبيعون السبايا في أسواق النخاسة ؟ ليحمنا بوذا من هذا المصير .

ضحكت مدام شينج و قالت :

إذن خبريني ما وزراء هذا الترحيب ؟

وراء الأم صلاح حالك ، وسلطة من ورائها .

لست أفهم ، هل تطلبين مني أن أهجر سفن زوجي الراحل ؟

ليتك تفعلين هذا يا سو ، إنك أثرى نساء الصين ، ليتك تهجرين هذه المهنة الدموية و تتزوجين من

قاطعتها ابنتها في حدة :

أماه لقد وعدت زوجي شينج بي ، و إني أنوي أن أفي بقسمي إلى آخر لحظة من حياتي ، ستظل سفن شينج بي في بحار الصين ما دمت على قيد الحياة .

دون زواج ؟

أماه أنا متزوجة من تشينج بي .

يا بنتي شينج بي مات و أنت على .

قاطعتها ابنتها :

أماه إذا لم تكفي عن مثل هذا الحديث فسأعود إلا سفينتي فلا ترينني أبد

قالت الأم في حزن :

هذا ما قالته سو للأمير
أي أمير
الأمير أو بو تيا
حاكم كانتون
أجل
و أين رأيت حاكم كانتون لتقولي له ، و يقول لك ؟
لقد جاء بنفسه ليقابلني في شأن يأمل أن يحدثك فيه بنفسه .
ضاحكة قالت سو :
الرجل لذي يحارب القراصنة يأمل أن يحدث ملكة القراصنة في شأن له .
في شأن له و لك .
و ماذا يري هذا العجوز المخرف ؟
عجوز أنه في الثلاثين من عمره ، أكثر أمراء الصين وسامة و شجاعة أيضا .
أو يو تيا شاب قي الثلاثين ؟ و مدمن أفيون أيضا .
ابنتي أنه هو الذي يحارب تجارة الأفيون .
و ما أكثر الذين يحاربون تجارة الأفيون ثم يدمنونه
إلا أو يو تيا
في أي شأن يريد أن يحدثني
يا ابنتي أنه لا يذكرك إلا بخير ، ‘نه في هذه الأيام في مدينة تونان ينتظر فيها أن تسمحي له بمقابلتك
اسمح له بمقابلته ، ليأتي بجنوده و يلقي القبض علي ؟
يا ابنتي أنه أرق من عرفت ، لا يخطر الغدر في باله قط
إنني لا أخشاه يا أماه ، و ثقي إنني قادرة على أن انتقم أبشع انتقام إذا حاول أن يغدر بي أو برجالي ـ فليأت وقتما يشاء

الأمير العاشق في زيارة القرصانة شينج

و تسأل زميلتنا الرومانسية :

و جاء الأمير العاشق لقابلته معشوقته

كان يقضي الساعات في مدينة تونان يمني نفسه بهذا اللقاء ، يحدوه الأمل في موافقتها على استقباله في دار أمها ، و يعبق به اليأس ، فيلقي به في المتاهات السوداء للعشاق المرتعدين من أشباح الصد و الهجران ، ما إن أرسلت إليه أم مدام شينج بموافقة ابنتها على استقباله حتى جاء مسرعا على جناح الأمل و الشوق .

ترى ماذا لقى من المحبوبة الجسور ؟

لم تتأثر كثيرا بوسامته و بشبابه و ألفاظه الرومانسية الرقيقة العذبة

هل حدثها عن حبه لها .؟

كلا ، لم يجسر على هذا ، و هي تستقبله في دار أمها بكثير من المودة ، لم يلمح في عينيها الجميلتين حبا و لا ودا ، و لا أمل في الحب الودود .

و لكن العشاق لا ييأسون أبدا

من قال أن " او بو تيا " ينس المحبوبة الصغيرة الشرسة ؟ حدثها في شيء بعيد عن غرامه بها ، بعيد عن المعبد الذي أقامه في قصره المنيف يتلو فيه كل صباح و كل مساء صلوات الحب الصادق العفيفي .

قال لها بلهجة جادة رغم ما فيها من رقة ناعمة :

مدام شينج ، لقد كان زوجك يا سيدتي من أسرة صينية عريقة رغم احترافه القرصنة .

قالت في برود :

أعرف يا أمير ، و هذا لا يخفى على أحد في الصين كلها .

و كان لا يكره أحد قدر كراهيته لهؤلاء الأوربيين الذين ادخلوا إلى بلادنا العزيزة وباء الأفيون :

مدام شينج يقولون إنك من أكبر تجار الأفيون من القراصنة

من المؤكد يا أمير أن من حدثوك عني و عن زوجي الراحل لم يذكروا لك كل شيء ، أغفلوا ذكر كثير من الأعمال التي نقوم بها نحن القراصنة .

مدام شينح لقد تتبعت كل كلمة قيلت عنكم ورددتها إلى مصادرها مذ مات زوجك ، وأنا أفعل ذلك .

و لماذا تفعل ذلك بحق بوذا ، هل ستكون مؤرخ يدون سيرته و أعماله .

و اضطرب صوته وهو ينفي الاعراب لها عن حبه ، قال لها بصوت مضطرب :

لأسباب كثيرة ، ليس أهمها إنني مكلف من جلالة الإمبراطور بالـ

قاطعته :

بالقضاء على القراصنة في بحار الصين ؟ هذا معروف مشهور يا أمير بالقضاء على السفن التي تهرب الأفيون إلى بلادنا ، فأنا إذن من بين أهدافك .

أجل لسوء الحظ يا مدام شينج .

و لماذا ترى ذلك من سوء حظك يا أمير ؟

و تدخلت الأم لتعفي الأمر من الحرج ، و قالت :

يا ابنتي ، الأمير لم يأت إلا ليخبرك ..

قالت سو :

إلى القضاء علي و على بحارتي خير يا أماه ، ثم ماذا تعرف أنت يا أمير عن أساليبي في الاتجار في الأفيون المهرب ؟ سيدي لم يحدث قط أن هرب زوجي الراحل الأفيون إلى الصين ، بل أني أجهل همي إعادة تصديره إلى الهند الذي يأتينا منها هذا البلاء ، إنني أساعد الحكومة .

و أسرعت الأم تقول :

أ لم أقل لك يا أمير أن ابنتي ليست كبقية قراصنة بحار الصين .

و قالت سوم :

سيدي الأمير ، لقد صدقتك القول ، و لكني لا أحب أن اقول إنني لست ملزمة بإيضاح موقفي لأحد .

لم يخف الأمير اعجابه ، و اندفع من فرط ما في قلبه من حب لسو الجميلة :

مدام شينج ، اسمحي لي أن أعبر لك عن اعجابي بـ

حذرته :

سيدي ، أنا لا أحب هذه اللغة .

فتراجع خوفا من غضبها و قال :

اعجابي بوطنيتك و شجاعتك الأدبية التي لا تقل عن شجاعتك في القتال على السفن .

أ لهذا جئت لمقابلتي يا أمير . لتطري على وطنيتي و شجاعتي التي لا مثيل لها ؟

و لأعرض عليك مالا يرفضه وطني .

و ما ذاك ؟

أن تطعني تجارة الأفيون المهرب في مقتل ،

كيف ؟

أن تنضمي بسفنك ورجالك إلى الأسطول الإمبراطوري في مكافحة المهربين الأجانب .

ضحكت سو في رقة هذه المرة ، و قالت ساخرة :

برتبة أميرال ، و أتباعي برتبة جنود

قال الأمير على الفور :

بأي رتبة تريدين .

و رجالي يعلقون على المشانق على صواري الجونكات ؟

نمنحهم عفوا كاملا ،و يصبحون من بحارة الأسطول الإمبراطوري .

سكت سو لحظة ثم قالت :

أمير أو يو تيا قد أكون حاكمة بأمري على ستين ألف من عتاة رجال البحر ، و لكن هذا لا يعطيني الحق في تقرير مصيرهم دون موافقتهم .

في أمل قال الأمير :

إنك قادرة على اقناعهم بذلك لو أردت .

و لكني لا أريد يا أمير

أرجوك لا تقرري شيئا الآن ، فكري في الأمر مليا ، و سوف يسعني أن أستقبلك في مقر عملي في كانتون في أي وق تريدين .

فماذا قررت سو الجميلة يا زميلي ، لا شك أنها قرأت في عيني الأمير قدر ما يكنه لها من حب عارم ؟

لاشك في هذا العاشقة للرومانسية ، فما إن غادر الأمير دار أمها حتى حدثتها تلك الأم الرقيقة الحانية عن كل ما سمعت عن حب الأمير لها ، و أمل حياته في أن تكون في نهاية الأمر زوجته الحبيبة تحفة قصوره ، و سعادة حياته .

فهل تأثرت بما سمعت ؟

ظل ما في قلبها سرا لا يطلع عليه أحد ، عادت إلى سفنها و مجال نشاطها في حماس لم يؤثر فيه ما حدثها عنه الأمير أو يو تيا و لا ما ذكرته أمنها عن هيامه بها .

إلى ان كان يوم ، ذهبت فيه إلى قصر العاشق في كانتون .

سو في قصر الأمير

عادت مدام شينج إلى أسطولها في بحر الصين تمارس به أعمال القرصنة كما حفظت أساليبها من زوجها الراحل شينج بي .

و كانت شديدة العطف على المحربين المحبين حتى ولو كاونا من عتاة الفراصنة :

قلبها لم يتحرك رحمة لعاشقها الولهان حاكم كانتون الأمير " أو بو تيا " عدو القراصنة اللدود .

لا دليل على أنا تأثرت برنة الحنان في صوته ، وهو يحدثها عن أمله في أن تكف عن تجارة الأفيون ، و لا دليل أيضا على أنها تأثرت بذلك الواقع ، يقول إنها عادت تمارس أساليب القراصنة في قتل ضحاياها من الرجال المأسورين ، و بيع الحرائر و الإماء في أسواق النخاسة ، و كانت في كثير من الأحيان تزوج أولئك السبايا الجميلات من بحارتها الذين بلغ عددهم ستين ألف رجل أو يزيد ، و كانت تشترط على هؤلاء الأزواج الجديد :

من يختار من السبايا زوجة له عليه أن يعاملها كما يعامل الزوج الصيني زوجه ، أن يصون حياتها و يفتديها بحياته و يقاسمها طعامه الذي يأكله ، و يرثها إذا ماتت ، و ترثه إذا مات ، و من يخالف هذا فليس له عندي إلا الموت .

كانت إذن تعيش في ذكريات حبها لزوجها شينج بي .

تقدس ذكراه و لا تفعل ما كان يأبى أن يفعل ، و كانت تمتنع في ذكرى يوم مصرعه في إعصار النيفون عام 1800 عن ممارسة أي نشاط قرصاني ، في ذكرى ذلك اليوم تلتف الجونكات الستمائة سفينة حول جونك القيادة ، و يسود الصمت اليوم كله إلا من الصلوات السرية الحزينة ، صلوات بوذا العظيم .

من أعجب العجب أن هؤلاء القراصنة العتاة السفاحين الذين لا تنبض قلوبهم برحمة لضحاياهم يطيعون في خضوع تام هذه القرصانة الشابة التي لم يزد عمرها ع\في عام 1804 على عشرين ربيعا .

كانت تعامل رجالها بالحزم ، و لكن بالعدل المطلق ، تماما كما كان يفعل زوجها الحبيب ، فهي تسير على نمطه و أساليبه مما أكسبها احترام الجميع ، و صار اسمها يدخل الرعب في قلب قراصنة بحر الصين من هولنديين و برتغاليين و انجليز ، ثم حدث ما لم يتوقعه أحد .

و ما ذاك

في إحدى معاركها مع بعض السفن الهولندية التي تمارس تهريب الأفيون في بحر الصين اعتلى بحارتها سفينة كبيرة غنموا مدافعها ، و مزقوا رجالها إربا ، ثم ألقوا بهم في مياه البحر الهادر ، وهى تتفقدها تلك السفينة قبل اشعال النار فيها لمحت صبيا صغيرا في التاسعة من عمره قابعا تحت منضدة يرتجف رعبا ، اخرجوا الصبي من مخبئه ، قالت لبحارتها و هي ترق الصبي المرتجف :

طفل صيني على سفينة هولندية

قالوا :

لقد أغارت السفينة من قبل على قرى الشاطئ الجنوبي لبلادنا يا زعيمة ، و خطفوا بعض النساء و الأطفال ، هذا طفل من هؤلاء المخطوفين دون ريب .

اللعنة على هؤلاء الهولنديين ، سألقنهم درسا لن ينسوه أبدا

و هذا الطفل يا زعيمة ؟

لا يمسه أحد بسوء ، انقلوه إلى حونك القيادة قبل أن تشعلوا النار في هذه السفينة ، اطعموه حتى يشبع ، لأنه جوعان ، ثم آتوني به في قمرتي .

عذا الصبي الصيني هو الذي أحدث الانقلاب في حياة مدام شينج (سو) ، الانقلاب المثير الذي لم يكن أحد يتوقع حدوثه ، دق قلبها الصغير دقات متتالية ، و كأنما رأت في الولد الذي كانت تتمنى أن تعطيه لزوجها الحبيب الراحل ، عرفت منه اسمه " لين تسي " قالت له :

لا يا صغيري من الآن هو شينج على اسم أبيك

قال الصبي :

أبي ، لم يكن أبي يدعى شينج يا سيدتي

أهو على قيد الحياة

كلا قتله الهولنديين حين هاجموا القرية ، و حرقوا القرية كلها ، و ذهب أبي و أمي و أخوتي في الحريق ، و استطعت أن أتسلل إلى سفينتهم .

قالت سو :

أما أبوك من هذه اللحظة فهو شينج بي ، و أنت من ألان ابنه الروحي ، و اسمك مثل اسمه شينج بلو (شينج الوسيم) ، ماذا كان اسم أمك التي ذهبت في الحريق ؟

تسو الحنونة

في حنان مرح قالت :

هذا أقرب الأسماء إلى أسمي ، اسمي " سو " ، و أنت من هذه اللحظة ولدي ابني ، ابن مدام شينج و ابن زوجي الراحل شينج العظيم .

رأته ذات يوم يختبئ تحت فراشها مذعورا ، و القتال يدور محموما مع سفينة برتغالية غازية ـ بعد انتصار أمه الروحية وجدته مدام شيج يبكي مرتعدا .

سألته و هي نضمه إلى صدرها في حنان الأم :

يا طفلي الصغير المحبوب ، ماذا دهاك ؟ إنك ترتجف أ لم تشهد قتالا على السفن من قبل هذا ؟

و لم يجبها الصبي من فرط ما نزل به من خوف ورعب ، مازالت به إلى أن عرفت منه أنه كان في فريته الساحلية هسيابو يتردد على المدرسة الابتدائية ، و أنه كان من التلاميذ النابهين ، في تلك الليلة رقد الصبي في فراش أمه الجديدة مدام شينج ، و ظلت هي ساهرة تفكر في الخطوة التي قررت أن تقدم عليها من أجل ولدها الصغير الحبيب شينج بلو .

و ما تلك الخطوة ؟

الذهاب إلى كانتون لقابلة حاكمها الأمير أو يو تيا

لم يكن حد لدهشة أهالي كانتون ، وهم يرون حاكمها الأمير او يو تيا يخرج في موكبه إلى الميناء لاستقبال سفينة القرصانة الرهيبة مدام شينج ؟

لا شك أنهم كانوا يتوقعون رؤية امرأة سرشة بدينة تنطلق معالمها القبيحة بالشر .

قلت :

هذا ما كانوا يتوقعونه مما كانوا يسمعون عن أفاعيلها الشيطانية في بحار الصين ، و لكنهم فوجئوا بشابة جميلة في العشرين ، جميلة أنيقة ذات بسمة راضية سمحة ، ذات رشاقة معجبة ، تمسك بيدها صبيا في العاشرة من عمره ، تحنو عليه ، و تمسح له رأسه في محبة كل لحظة ، ظنوه ولدها من عاشق مجهول ، فما أكثر العلاقات غير الشرعية في سفن القراصنة ، و تسير بجانب حاكمهم في اعتداد ، و تركب مع الصبي بجواره في العربة الأميرية النى جاء بها ، و يذهبن جميها إلى قصر الأمير في كانتون .

أكاد أتصور سعادة العاشق وهو يرى محبته تزوره في أبهى حالاتها ، محبوبته التي يقدسها ، و بنى لها معبدا في قصره ، بل وضع صورتها في كل مكان في القصر . .

وتزداد سعادته حين حدثته فيما جاءته من أجله ، بعد أن قصت عليه تبنيها للطفل الصيني الذي وجدته أسيرا على سفينة هولندية من سفن تهريب الأفيون ، قالت له :

لقد علمت منه القليل عن أسرته ، و لا أريد على أي حال أن أعرف عنها الكثير بعد أن تبنيته و جعلته ولدي الذي يرثني ، يا صاحب السمو الأمير أو بو تيا أريد لولدي أفضل تعليم صيني - فعل تعاونني في ذلك ، أكبر المعلمين و الفلاسفة .

في صوت حافل برنة الحب الذي لم يستطع هذه المرة أن يخفيه عن محبوبته ، قال الأمير :

مدام شينج إذا أبقيته في كانتون فسيغدو تحت رعايتي إلى أن يصل ما تريدين له من علم ، سيكون ولدي أيضا يا مدام شينج .

قالت في إباء :

سيدي أبوه هو زوجي الراحل شينج بي ، لقد سميته شينج على اسم أبيه

مدام شينح ألا ترين أن هذا ..

قاطعته :

ليس الأمر الطبيعي ؟ على العكس يا أمير ، لقد كان زوجي يتوق إلى الولد ، ما إن رأيت هذا الصبي على سفينة القرصنة

الهولنديين حتى أدركت أن السماء تريد أن تحقق لزوجي أمنيته التي تمناها ، و شينج بلو هو أمنية زوجي ، لا أم له سواي ، و لا أب له غير شينج بي .

قال الأمير بلهجته الرقيقة :

اسمحي لي بسؤال يا مدام شينج

قالت و لا يخلو صوتها من مرح الابتسامة الوقور :

أعرف ما تريدين أن تسألني عنه يا أمير ، تريد أن تسأل لماذا لم أنشئ ولدي هذا ليكون قرصانا مثل أبيه .

و مثل أمه ، أمه الجميلة الرقيقة التي لا تليق بها إلا القصور الأنيقة ، و ليس جونكات القراصنة الضيقة المعتمة العبقة برياح الدم من كل الأطراف .

و تجاهلت المجاملة الرقيقة ، و تابعت حديثها عن الصبي :

لقد فكرت طويلا في أمر شينج بلو صغيري المحبوب ، رمقته خلال معاركنا مع القراصنة المهربين ، وأدركت مدى بعضه الشديد للعنف و الدماء ، ولدي هذا يا أمير إذا صدق حدسي و عاونتني في تعليمه سيكون من فلاسفة الصين ، وليس من القراصنة .

قال الأمير في انفعال عاطفي :

أحسنت صنعا يا مدام شينج ، و كما قلت لك لن اكتفي بمعاونك في تنشئته و تعليمه أرقى تعليم ، بل ، بل سأرعاه كأنه ، كأنه ولدي ـ مدم شينج لا أحسب إنك لم تدركي حتى الآن إنني .

قاطعته في جد صارم :

سيدي ، لقد سمعت الكثير عنك ، و لولا ثقتي في حكمتك لما جئت إليك ، أرجوك لا تحدثني عن ، عن ، أعني عن المعبد الذي أقمته في قصرك تتلو فيه صلواتك في حب سيدة بعينها .

قاطعها في رقة :

في حب أجمل و أرق و أصبى شابة في الصين كلها

قالت دون جفاء :

أمير أو بو تيا لست بالشريرة الجاحدة التي لا تأبه بهذه الأحاسيس النبيلة ، و لكني أيها الأمير قرصانة ، وزوجة قرصان

، زوجة شينج بي الذي أقسمت أن أظل على عهده ، زوجته وحده إلى أن ألحق به في السماء .

في حزن يائس قال الأمير :

ليس في الدنيا من هو أتعس مني إذن .

قالت :

أمير أو بو تيا ، لعلك تذكر يوم زرتني في دار أمي في قرية أموي إنك عرضت علي عرضا معينا .

و أحيت فيه هذه الكلمة الأمل الذي ظن أنه ذوي و مات ، قال لا:

أجل ، أجل ، أن تنضمي برجالك إلى الأسطول الإمبراطوري لمواجهة تهريب الأفيون إلى الصين ، هل توافقين علي ذلك يا مدام شينج .

قالت :

لدي اقتراح لا يقل فاعلية عن اقتراحك القديم في مقاومة السفن الأوربية التي تهرب الأفيون إلى بلادنا ، لن ننضم إلى الأسطول الإمبراطوري ، و لكني قررت ألا أهاجم غير تلك السفن الأوربية ، لقد غنمت بعض المدافع و لكنها لا تكفي ، عدد سفني كبير يا أمير 600 جونك ، و ليس معنا غير عشر مدافع ، أريد على الأقل مائة مدفع .

مدام شينج إني على ثقة من صدق كلمتك ، و لكن مولاي الإمبراطور قد يرفض ، قد يظن إنك تريدين الحصول على المدافع ثم تعودين إلى مهاجمة السفن الصينية ؟

لقد قلت لك من قبل يا أمير ، إنني أهاجم السفن التي تهرب الأفيون إلى بلادنا دون النظر إلى جنسيتها ، أما ما أقوله الآن فهو إنني لن أهاجم إلا السفن الأوربية ، ألا تثق بكلمتي ؟ يمكنك أن تقنع الإمبراطور بصدق نواياي .

قال الأمير :

سأسافر الغد إلى العاصمة ، أرجوك لا تغادري كانتون حتى أعود بموافقة صاحب الجلالة الإمبراطور .

و بقيت مدام شينج في قصر حاكم كانتون بعد أن سافر إلى بكين لإقناع الإمبراطور بتزويد جونكاتها بالمدافع ؟

بقيت وولدها شينج باو تعامل كأنها صاحبة القصر ، يلبي الخدم و الوصفاء و الوصفيات كل ما تأمر به ، قادتها قدماها ذات يوم غلى المعبد الذي أقامه في حبها العاشق الولهان ، جناح أنيق في الناحية الشمالية من القصر ، و دخلت غرفة التعبد ، أذهلها أن شاهدت في صدرها لوحة زيتية بعرض الجدار تمثلها في أجمل هيئة لها ،ورأت اسمها في كل مكان ، رأته منسوجا على الناقوس ، و على السجاجيد المعلقة على الجران ، بل منقوشا بماء الذهب على الأنية و المقاعد ، لم يعد لديها شك الآن في أن ذلك الأمير المرموق الوسيم صادق في حبه لها ، دمعت عيناها و هي تغادر المعبد و تتمتم لنفسها :

شينج بي حبيبي وزوجي الأبدي ، أبدا لن أحنث بقسمي لك ، أبدا لن أكون لغيرك ، حتى ولو لهذا الأمير الرقيق الطيب القلب .

و عاد إليها الأمير أو بو تيا بموافقة الإمبراطور على تزويدها بستين مدفعا

و كيف وافق على تسليح سفن القراصنة ، وهو الذي نذر نفسه لمحاربة القراصنة في بحار بلاده و القضاء على تهريب الأفيون .

و تلك كانت الفترة التي دأبت سفن القراصنة الأوربيين على التحرش بالأسطول الإمبراطوري نفسه بتحريض من دولهم خاصة بريطانيا و هولندا و البرتغال ، و قد رأى الإمبراطور شيبا شينج أن الحرب وشيكة بين قواته و قوات الأوربيين الذين يطمعون في احتلال بعض مدن الساحل لجعلها مركزا معترفا به لتجارة الأفيون ، لهذا قرر أن يستعين بكل و سيلة تتاح له لكسر شوكة هؤلاء القراصنة الأجانب الذين ينفذون سياسة الاستعمار المرسومة في عواصم اوروبا خاصة ، و أن الشعب الصيني نفسه الذي أدمن الكثير من أفراده تدخين الأفيون كان يطالبه باتخاذ وسيلة عنيفة للقضاء على تجارة الأفيون و تهريبه ،

و قد حدث عام 1813 أن قامت ثورة محدودة في بكين أدرك الإمبراطور على أثرها أن الشعب كله يؤيده في ضرورة القضاء عل هذه التجارة الإبليسية ، و لو اضطر إلى الدخل في حرب مع القوي الأوربية في بحار الصين .

حصلت مدام شينج على المدافع ، و لم يقبض الأمير العاشق إلا على الريح ، و لم يحصد غير الهشيم .

ولكنه لم ييأس قط ، و كانت مام شينج تتردد كل شهرين أو ثلاثة على كانتون لتسعد برؤية ولدها بالتبني شينج باو ، فتقضي يومين أو ثلاثة في فصر الأمير ، صارت تكن له صداقة رقيقة ، أما هو فلم يكن يحفظ لها غير الحب الأبدي الذي لم تفتر وقدته أبدا ، بل زادته الزيارات المتكررة عمقا في نفسه ، ثم كانت محاولة الأسطول الهولندي في عام 1813 الاستيلاء على ميناء وينشو الصيني لاتخاذه موطئ قدم لدولتهم علنية للإتجار في الأفيون ، و اشتركت جونكات مدام شينج في المعركة تساند الأسطول الإمبراطوري ، و كان للشابة الجسور الفضل في تحطيم أكبر عدد من سفن التهريب ، و فرار ما بقى من الأسطول الهولندي .

صارت مدام شينج بطلة قومية إذن .

و كان الإمبراطور يهتفون باسمها مع اسم الإمبراطور ، و لذا قرر الإمبراطور الاحتفال بالنصر على أعداء الصين ، دخلت حونكات مدام شينج التي زاد عددها الان على الألف دخلت ميناء شينجهاي ، و اختارت أكبر و أوسع ميادين الميناء الشهير ، و أقامت فيه محرقة كبيرة .

ماذا محرقة ؟ لتحرق فيها أسراها من الهولنديين ؟

لم تفصح عن نيتها إلا حين رأى الأهالي رجالها ينقلون إلى تلك المحرقة الأطنان الهائلة من الأفيون المصادر من غزواتها الكثيرة على سفن التهريب الأوربية ، بعد أن صار الافيون أواما على المحارق ، تقدم الأمير او بو تيا و في يده شعلة كبيرة ، و بجواره مدام شينج ، و في يدها شعلة كبيرة أخرى ، ، ولدها الشاب شينج بلو يحمل شعلة ثالثة ، و ارتفعت ألسنة اللهب الأزرق في جبال الأفيون تغشى المنطقة كلها بدخانها الأسود الكثيف .

لا شك أن مدمني الكيف من أهل شنعهاي قد نعموا في ذلك اليوم بأوفر مزاج في حياتهم

الذي سعد حقا هو الأمير أو يو تيا ، فبعد انتهاء هذه المظاهرة الشعبية العلنية ، قالت مدام شينج لعاشقها الولهان :

لست أدري كيف أفي لك بأيديك البيضاء علي و على ولدي ، لقد صار فتى في العشرين على حكمة واسعة و علم وافر يسعد قلب امه .

قال الأمير :

لقد طلبت من الإمبراطور أن يجعله مساعدا لي في حكم كانتون يا مدام شينج .

قالت :

أمير أو يو تيا ، لقد طلبت مني يوما أن أنضم برجالي و حونكاتي إلى الأسطول الإمبراطوري ، لقد عرضت الأمر على رجالي ، كلهم قرروا ان يطيعوني إذا فعلت ذلك ، و لم تعن يخشون لمحاكمة ، إنهم على سفنهم في ميناء شينغهاي ينتظرون عفوا عاما من جلالة الإمبراطور .

قال الأمير :

مدام شينج ، لقد كنت على ثقة بأنك في نهاية الأمر ستقبلين ما عرضته عليك من ثلاثة عشر عاما ، العفو الإمبراطوري في جيبي الآن .

كان يوم انضمام جونكات مدام شينج إلى أسطول الإمبراطور الصيني يوما لا ينساه قط أهالي المدن الساحلية الصينية ، على طول الساحل تتجول السفن التي استخدمها القراصنة أكثر من عشرين عاما في مهرجان شعبي صيني تقليدي كبير ، و هي رافعة أعلام الصين لتستقر في نهاية المر في ميناء كانتون ، هناك يخلع الرجال ثياب القرصنة ، و يرتدون جميعا ثياب البحارة الصينيين ، يحصلون على الرتب البحرية التي اقترحتها مدام شينج لكل رجل منهم .

و هي ؟ ما الرتبة و اللقب اللذان كانا من نصيبها ؟

عاشقة الرومانسية ؟ حصلت رتبة و لقب الجنرالة زوجة الجنرال الأمير أو يو تيا ، و نال العاشق الصبور في نهاية الأمر ما تمناه .

و بذلك سطر تاريخ الصين أكبر ملحمة من ملاحم التاريخ سواء في الحب أو البطولة .